جماليات فنون عصر النهضة

(4)

رافائيل سانزيو (1483 – 1520)

- ولد «رفائيل سانزيو» (1483-1520) Raphael sanzioفى «أوربينيو» وكان والده «جيوفانى دى سانتى» مصورا وحين بلغ «رافائيل» السابعة عشرة التحق بمدرسة «بيروجنيو» وبينما كانت شهرة «ليوناردو دافنشى» و «مايكل انجلو» تملأ الأسماع في أنحاء «فلورنسا»، كان «رافائيل» ما يزال فى سن العشرين، حين اقتحم ميدان الفن في «فلورنسا». فاتجه بكل طاقته ينهل من المنهج الفرنسي في الفن، وبخاصة واقعيته. فاستطاع تطوير أسلوبه، وغدا يضفى على صورة حيوية إنسانيه وطاقة موحية، عكس المشاعر الخاصة بكل شخصيه، بل وما يختلج فى خواطرها، وهكذا اكتسبت شخصيات «رافائيل» جاذبيه خاصة.

- لقد كان رافائيل جميل الطلعة حلو الحديث، و هو من أكثر فناني القرن السادس عشر الإيطاليين، تمثيلا لعصر النهضة الذهبي. رغم كونه لم يكن مستحدثا لفن جديد، مثلما كان ليوناردو دافنشى، أو مايكل أنجلو، ولكن تكمن قيمة فنه كونه قد عمق منجزات أسلافه.

- وعندما سافر رافائيل إلى فلورنسا، كانت هذه المدينة بالنسبة له، هي مايكل أنجلو و ليوناردو دافنشى. غير أنه ظل ملتزما بنظرته الجمالية، وبالتقنية الكمالية. وبذلك أنجز روائع عدة، تمثل نماذج رائعة التعبير والجمال، وأسلوبه يفيض بالخصوبة الإيقاعية للخطوط ، وبالحساسية البالغة في معالجه المناظر الطبيعية والمعمار.

- وفى الوقت الذي أنجز فيه رافائيل لوحاته (حلم الفارس) و (زواج عذراء) (1504). كان تأثير أستاذه بيروجينيو واضحاً. إذ تشابهت التكوينات الفراغية فى عمل رافائيل مع تكوينات لوحة (المسيح يعطى بطرس مفاتيح ملكوت السماوات) التى رسمها بيروجينيو. وفى اللوحتين تحتشد الشخوص فى أمامية الصورة. غير أن رافائيل سرعان ما أظهر تحولا بنظرته الجمالية عن التعبير الحسى إلى الرقة والسمو.

- لقد تميزت لوحة (زواج العذراء) لرافائيل بكونها أكثر حساسية للقيم الفراغية ، و تأكيدا على عنصر الأناقة الناضرة . ففى هذه اللوحة يظهر كاهن بين - مريم ويوسف – يمسك برسغيهما ، فجعل يوسف فى منتصف الصورة مادا يده نحو مريم . و بهذه الطريقة تشكلت بؤرة اللوحة فى النقطه التى تتجه إليها يد مريم لتلبيس خاتم زواجها.
- أما الكاهن فهو يمسك بين كل من ((يوسف)) و ((مريم)) فى وضعيه يميل فيها بجذعه الأعلى نحو ((يوسف)) ، مما جعل صورته تكتسب حركه حيوية ، فهو يقف فى نقطه تمركز بؤرة العمل . وقد تفوق رافائيل فى الإيحاء برقة العذراء فى روعه ، وبدت عليها إيماءات البراءة الطفوليه والهيئة القدسية فى آن معا . إن هذه اللوحة تتميز بقوة تكوينها ، وبرقة صياغتها .

((سان جورجيو والتنين)) – بمتحف اللوفر بباريس – فتذكرنا برسوم الجياد التى رسمها ليوناردو.غير أن لوحة رافائيل تتميز ببنائها المعقد الذى يقوم على التباينات فى الصياغات الضوئية والظلية .

تمثل لوحة (إنزال المسيح) التى رسمها رافائيل سنة 1507 – بمتحف بورجيزى بروما – مشهدا تاريخيا تتميز فيه الوجوه و الأجسام بنعومة وليونة رائعة ، وتتمتع بتأثيرات درامية ، صنعتها الدرجات اللونية الشفافة . لقد فرض رافائيل من خلال عظمة فنه ، نظرته الجمالية قرابة ثلاثة قرون . ونلاحظ فى لوحته ((العذراء على العرش بين القديسين)) عناصر الرقة ومعاني الحب الصافي ، والألوان الصريحة مصاحبه للصياغة الشكلية ، مما كانت تفتقد إليه أعمال أستاذه بيروجينو ، إذ أن أعماله كانت تتصف بالصلابة والتناسق الصارم فى توزيع الظلال والأضواء

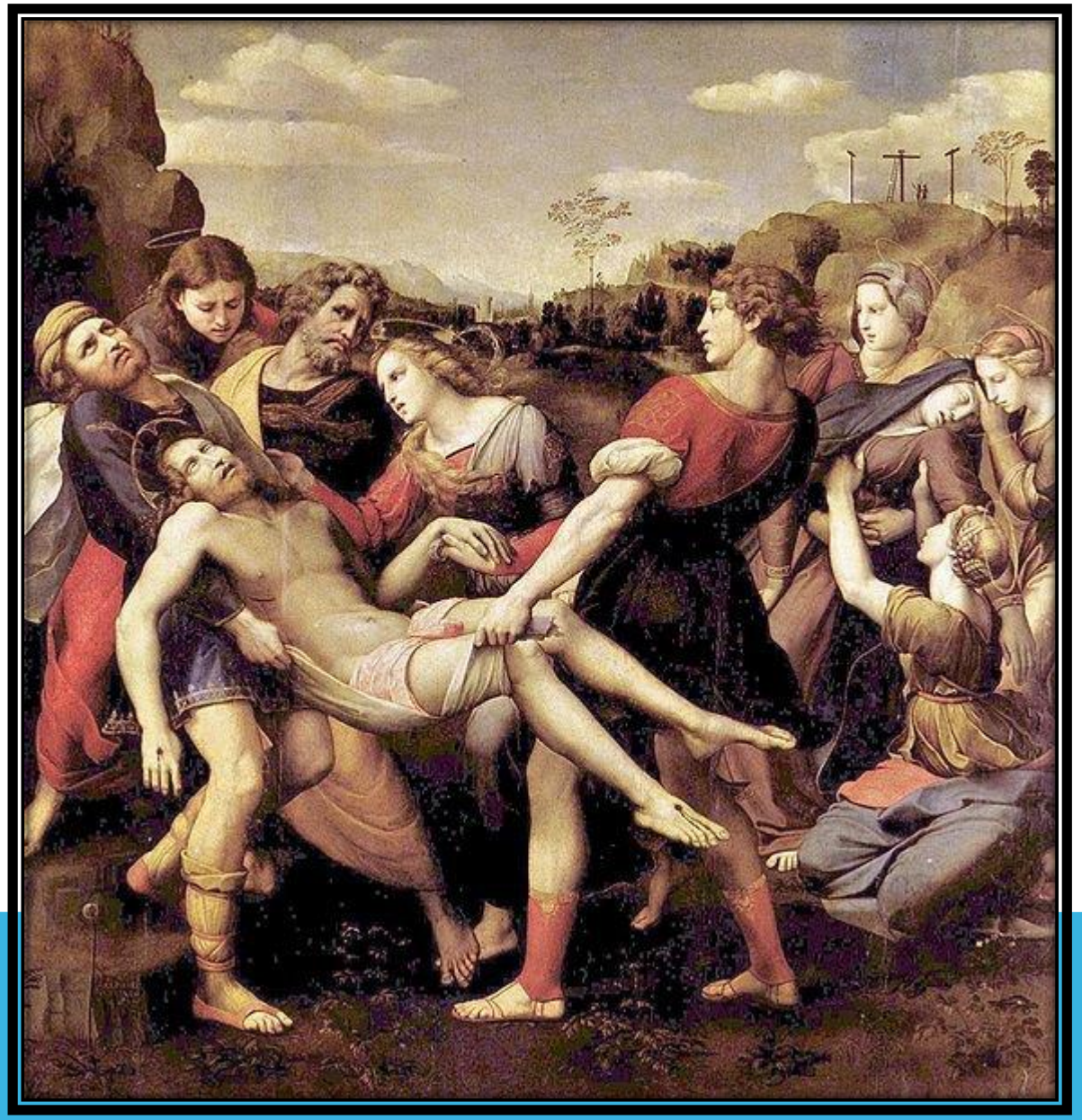

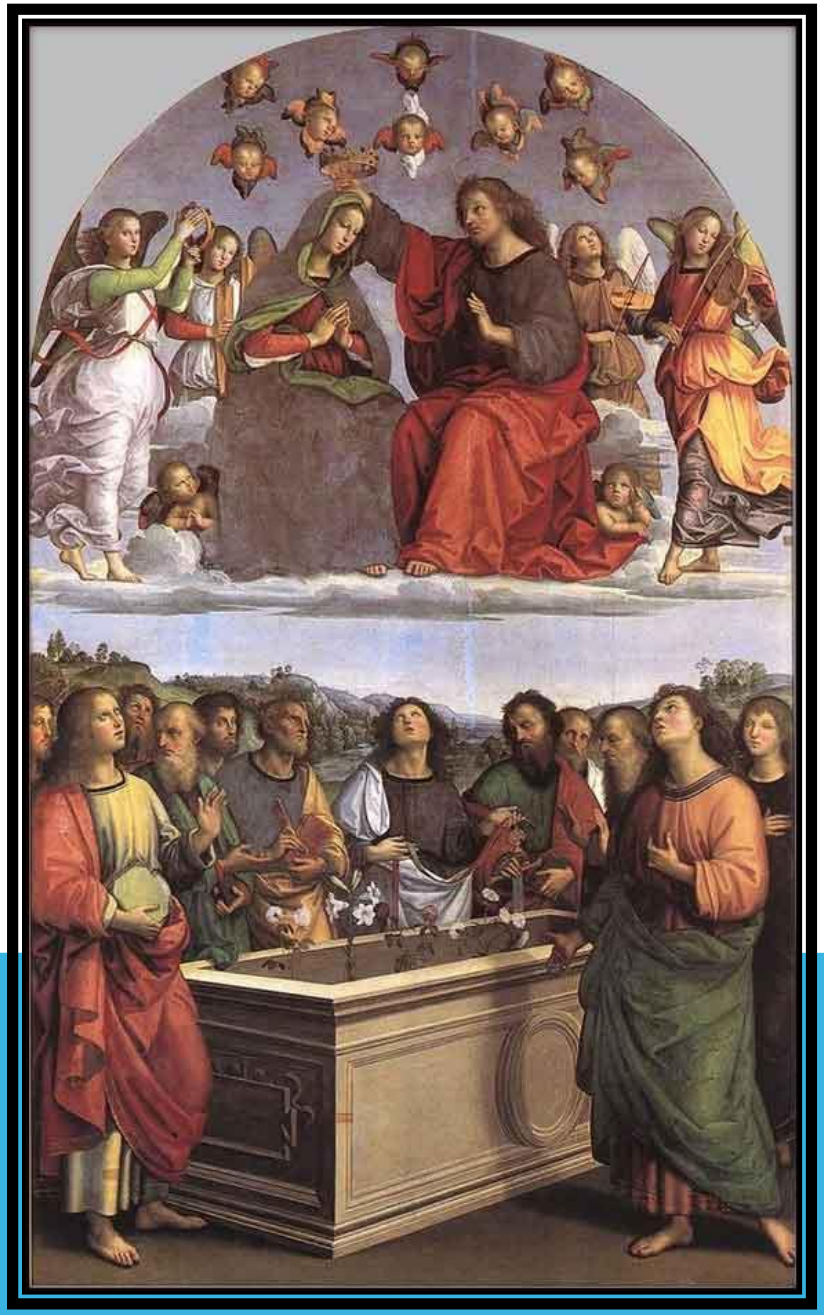

عام 1503 رسم رافاييل لوحة تمثل تتويج العذراء وهي موجودة اليوم في الفاتيكان، وفيها يقف الرسل ومعهم مريم المجدلية حول تابوت خال، ويتطلعون إلى أعلى حيث يقف المسيح فوق السحب ويضع تاجاً على رأس مريم ، بينما يحييها الملائكة بالعود والرق.

((عذراء سيستنيا)) 1516، التى تعد بحق أجمل صوره للعذراء

وتتجلى فى هذه اللوحة العذراء بين السحب ، وتحمل المسيح الطفل ، والى جوارها احد القديسين فى مستوى أدنى ، وبالجهة المقابلة قديسة ، و فى أسفل اللوحة ملاكان صغيران . و يتضح فى هذا المشهد المقدرة الفائقة فى تحقيق التكوين المحكم والدقة فى التناسب . واللوحة تتضمن عنصر التكامل الهندسى بين العناصر المختلفة ، بالاعتماد على التنظيم المترابط من خلال الدرجات الظليه وتحديد الفراغات

وقد أستخدم الفنان هنا حيلة يتحقق بها محاكاة البعد الثالث أو المسافة ، و تعرف هذه الطريقة بالمنظور الضوئي ، وذلك بوضع الألوان فى أمامية الصورة و وسطها وخلفيتها تباعا ، وكلما بعدت عنا خفف من شدتها . و فى فن رافائيل بوجه عام يسود مبدأ المعيارية بصفه مطلقه ، بل وتختفى عناصر التلقائية والتى كانت قد ظلت ماثله فى فن ليوناردو . و فى الحقيقة إننا نجد موهبه رافائيل واضحة فى رؤيته المثالية لصور الأشياء والموضوعات ، التى تنطوى عليها مخيلته ، وليس تلك التى نشاهدها فى الواقع .

إذ كان رافائيل تمتع بمخيلة عظيمة فى تخيل الأشياء والموضوعات، التى تنطوى عليها مخيلته ، وليست تلك التى نشاهدها فى الواقع. إذ كان رافائيل يتمتع بمخيلة عظيمة فى تصور الأشياء، و قد أعجب بتمثال أبو للو بلفدير (المحفوظ بالفاتيكان) من الفن اللأغريقى القديم، مما اثر كثيرا فى فنه، إذ وجد فيه نظرة تطلع نحو عالم مشرق، فنقلها إلى وجوه القديسين، والشعراء، و الفلاسفة التى تضمنتها أعماله.

هكذا أستطاع رافائيل إن يمزج بين عناصر مختلفة، مستمده من القصص الدينى، ومن الاتجاه الأنسانى للكلاسيكية اليونانية، حينما أستطاع أن يجسد فى أعماله، جماليه خالدة، أضفاها على الشخصيات التى بدت تجمع بين عنصرى الحسيه والمثالية فى نفس الوقت.

مدرسة أثينا –(1509 – 1511) ، الفاتيكان

مدرسة أثينا –(1509 – 1511) ، الفاتيكان

- أما التصوير الجدارى ((مدرسة أثينا)) فيصور اجتماع الفلاسفة الكلاسيكيين القدامى وتلاميذهم. وفى مركز العمل وتحت عقد المبنى الضخم ، مرسوم كلا من أفلاطون وأرسطو ويظهر الأول شيخا مشيرا بيده إلى السماء، تعبيرا عن فلسفته المثالية، والثاني يشير بيده إلى الأرض رمزا لواقعية منهجه الفلسفى . و فى وسط حلقته يلقى سقراط على زميله أفلاطون أسئلته. ويظهر الفيلسوف ديوجين مستلقيا على الدرج زاهدا،وجلس فيثاغورس أمام لوحة الكتابة يدون شيئا ما.
- ونلاحظ أيضا صوره للفلكي بطليموس وأخرى لزرادشت، كما نشاهد عالم الهندسة أقليدس. لقد اظهر الفنان مقدرة فائقه فى تمثيل الأشخاص فى حركتها وتعبيرات وجهها، و جمال وضعيتها فى الفراغ. و تشكل المجموعه الملتفه حول فيثاغورث فى الجهه اليمنى تكوينا رائعا، حيث تتشكل مجموعه من الأقواس فى الجهه اليسرى من أمامية اللوحه، إذ يقوم أقليدس ببراهينه الهندسيه .
- ويبدو المشهد يتمتع بتنوع فى حركات الأشخاص، فهنا بتمركز أربعة أشخاص تقريبا فى اتجاه نقطه واحده فى الفراغ، وفى تناسق و ترابط منطقى واضح، رغم التنوع فى وضعياتهم . ويتقدم المشهد الشخصيتان الرئيسيتان فى وسط اللوحة بين صفين من أتباعهما. و جمع من الفلاسفة انتشروا فى فراغ اللوحه. أما ابن رشد فيشاهد خلف موقع فيثاغورث بعمامته منحنيا إلى الأمام .
- إن جميع الشخصيات باللوحه تفيض بالحيوية ، و تشتمل اللوحه على رؤية إبداعيه و خيال ذاتى . و قد اتخذ المشهد الخلفى فيها مكانه خاصة ، بهدف التعبير عن رحابة الفراغ . و الحقيقه إن لوحة مدرسة أثينا خير مثال يعبر عن عصر النهضة: ((الفلسفة ، الجمال ، الشعر ، العدالة)) وقد استخدم فى هذا العمل عنصر الفراغ المكانى ليس من أجل الدلاله على اللانهائية ، مثلما كان يفعل الأستاذ بيروجينو .
- وإنما من اجل أداء وظيفى يتعلق بتوزيع الأشخاص ، و يتعلق بمقتضيات التكوين الذى يقوم على أساس معمارى واضح ، إذ إن المشهد الخلفى للوحه المتمثل فى العقود الشامخة مع المنحوتات البارزة ، و التماثيل بطرازها المتميز قد تتناسب مع حركه المجاميع فى الفراغ الفسيح ، و الحركات التى تشكل جموع الشخصيات بإيماءات رؤوسها وأطرافها فى إيقاع متوحد .
- لقد تميزت اللوحه بجمال ألوانها وبانسجام خطوطها السهله الممتعه، وبإتقان و تنسيق كل جزئيه فيها، بحيث إذا ما تغيرت وضعية اى جزء منها يكون من شأنه الإقلال من جمال الصورة كلها. و قد نجح رافائيل فى تحقيق التوازن بين العلاقات الجسدية فى حركاتها الرشيقة مع التعبيرات الذهنية.

لوحة عذراء الزهرة، ونلاحظ شاعريه تذكرنا بعذراء الصخور التى رسمها دافنشى كما تظهر بها ملامح معبرة عن الحنان فى القصه المسيحيه.

تظهر العذراء فى لوحة عذراء الكرسى (1516 – بقصر بيتى بفلورنسا) مع يسوع الطفل ، كامرأة تفيض حيوية و دفء . أما الطفل يوحنا فهو بمثابة عنصر للإيحاء بالعمق ، و أثراء التكوين ، و قد بدت الشخصيات متألقة و مترابطة ، داخل الإطار الدائري ، ووضح الإحساس بالاتساق بين جميع الأجزاء و التفاصيل .